الإفراج عن قادة طالبان: لماذا الآن؟

■ حميدي العبدالله

تبادلت الولايات المتحدة وحركة طالبان إطلاق سراح الأسرى، ولعبت قطر دور ضابط الاتصال بين الجانبين، وصولاً إلى صفقة أدت إلى الإفراج عن جندي أميركي أسير لدى طالبان، مقابل إفراج الولايات المتحدة عن خمسة من قادة طالبان موقوفين في معتقل غوانتانامو. العملية في هذا التوقيت تحديداً ليست مجرّد عملية تبادل للأسرى، بل يشير سياقها العام، وما سبقها من اتصالات ومفاوضات بين طالبان وبين الولايات المتحدة، إلى أنها تتجاوز تحرير جندي أميركي أسير مقابل خمسة من قادة طالبان، فالملا عمر وصفها بالانتصار الكبير، وهي كذلك لو أخذنا في الاعتبار أنّ الولايات المتحدة وضعت هدفاً مركزياً لها لدى غزوها أفغانستان هو القضاء على طالبان وليس إسقاط حكمها فحسب، وبالتالي فإنّ مجرّد قبول الولايات المتحدة التفاوض مع طالبان هو اعتراف بهذه الحركة، واعتراف بفشل الولايات المتحدة بعد مرور اثني عشر عاماً على غزو أفغانستان في تحقيق هدف القضاء عليها، ويحق للملا عمر توصيف الإفراج عن قادة طالبان بأنه انتصار كبير.

توقيت عملية التبادل مرتبط حتماً بحدثين متوقعين في وقت قريب:

- الحدث الأول، التزام إدارة أوباما ودول الناتو سحب قواتهما الأساسية من أفغانستان مع حلول نهاية هذا العام، وبديهي أنّ نجاح هذه العملية يستدعي التوصل إلى تفاهمات مع حركة طالبان لتأمين انسحاب هادئ للقوات الأميركية وقوات الناتو. فإذا لم يتمّ التوصل إلى تفاهم مع حركة طالبان فقد تتعرّض القوات الأجنبية أثناء انسحابها لهجمات، وكلما ازدادت أعداد القوات المنسحبة وخسرت مواقع كانت تحت سيطرتها ازدادت هجمات طالبان خطورة، ما قد يلحق خسائر فادحة بالقوات المنسحبة، إضافة إلى الأضرار المعنوية والسياسية، إذ سوف ينظر إلى الانسحاب على أنه فرار من المعركة، وهذا ما تسعى الولايات المتحدة وحلف الناتو إلى تجنبه، ولا يمكن تجنب وقوع مثل هذه الهجمات إلا إذا كان هناك تفاهم مع طالبان.

- الحدث الثاني، إعلان الرئيس أوباما أثناء زيارته الأخيرة المفاجئة لأفغانستان، أنه سوف يبقى نحو تسعة آلاف جندي أميركي حتى عام 2016، وإبقاء هذه القوات من دون تفاهم مع حركة طالبان سوف يؤدي إلى تعرضهم لهجمات، وعديد هذه القوات لا يؤهلها لخوض معارك ظافرة مع طالبان وقد فشلت في صدّ هجماتها عندما كان يصل عديدها إلى جانب عديد قوات الناتو إلى عشرات آلاف الجنود.

إذن، تسهيل انسحاب القوات الأميركية وقوات الناتو بهدوء من أفغانستان، والحفاظ على أرواح الجنود الذين سيبقون حتى عام 2016 هي التي دفعت الولايات المتحدة إلى إجراء تبادل جندي أسير مع خمسة من قادة طالبان، وتراهن الولايات المتحدة على أن تؤدي هذه الخطوة برعاية قطر ومساعدتها إلى إقناع طالبان بالدخول في مفاوضات مع الولايات المتحدة تؤمن خروجاً للقوات الأميركية يشبه خروجها من العراق عندما تفاهمت مع حكومة المالكي على كيفية هذا الانسحاب وشروطه. لكن طالبان هي بالتأكيد غير حكومة المالكي من ناحيتين، الأولى أن حكومة طالبان كانت عدواً للولايات المتحدة قبل احتلالها لأفغانستان وخلاله، في حين أن حكومة المالكي كانت حليفة للولايات المتحدة. والثانية أن أي تفاهم بين الولايات المتحدة وطالبان يشكل إحراجاً سياسياً لكلا الطرفين، ولن يكون سهلاً الوصول إلى تفاهم على الخروج يشبه التفاهم الذي تم التوصل إليه في العراق عشية الانسحاب عام 2011.

... وأخيراً «مغاربة سورية» في الإعلام المغربي الرسمي

■ عبد الفتاح نعوم

خلال الأيام القليلة الماضية، بثّت القناة الثانية المغربية، برنامجين، أحدهما حواري والثاني وثائقي، وكان موضوعهما متعلقاً بقضية المغاربة الذين سافروا إلى سورية لأجل «الجهاد». وتزاحُم البرنامجين وتواليهما زمنياً، أوحى كأن الحدث مستجد والحديث مهني وموضوعي، وأوحى كذلك وكأن المسألة تتعلق برغبة محض وطنية في إنهاء تلك القضية، فماذا عن طبيعة التوقيت؟ وماذا عن الغايات؟

لا يمكن القول مثلاً، إن التلفزيون الرسمي المغربي كان منشغلاً طوال السنتين الماضيتين بجمع مقاطع الفيديو عن «المغاربة» في سورية، أو وجد صعوبة في إجراء لقاءات مع أسر بعض أولئك الشبّان المغرر بهم. لكن قد يكون للتوقيت الذي اختارته الدعاية الرسمية في المغرب لتسليط الضوء على الموضوع أكثر من مغزى، لا سيما أن اختيار التوقيت أهم ما في السياسة والإعلام، بل إن فهم التوقيت يقود إلى استجلاء الغايات.

على صعيد جبهات القتال داخل سورية، تحقق تقدم سريع ومريح للجيش السوري، حاسماً في منطقة القلمون، ومتقدماً في كسب وريف اللاذقية، ثم مخلياً لحمص القديمة من دون الدخول في معركة ردع شامل، والوجهة اليوم حلب، من شرقها إلى شرق سورية وشمالها الشرقي. وضع ميداني يؤشر إلى أن ثمة هجرة عكسية للمقاتلين الأجانب من سورية، ويُلاحظ في استراتيجية الدولة السورية أنها تنتهج أسلوب المصالحات مع السوريين، وتطارد غير السوريين إلى خارج الحدود، الأمر الذي يهدد أمن بلدان الجوار السوري بخاصة، تركيا والأردن تحديداً، ناهيك عن أمن بلدان أوروبا، ولذلك عُقد حديثاً اجتماع بروكسيل الأمني ليناقش موضوع العائدين من سورية، وكان المغرب ضمن الدول الممثلة في الاجتماع.

السياق العام إذن فشل الخطة التي رسمت، وكان هدفها استنزاف مكوّنات الدولة السورية والضغط عليها لإسقاطها أو إعادة تشكيل سقف خياراتها الجيواستراتيجية. والآن ثمة خوف كبير من أن ينقلب السحر على الساحر، لذا شاهدنا هذا الهلع في الإعلام العالمي المحيط بملف العائدين من سورية، والمغرب آخر طائر يصيح في السرب. يا للأسف، قبل أن يتناول الإعلام الرسمي الموضوع، كان استقبال العائدين يتم بطرائق تقليدية ميسمها رد الفعل الأمني الصرف والتقليدي، وناقشنا هذه القضية في مقال «من يصنع التطرّف الديني في المغرب».

كان برنامج «مباشرة معكم» يحمل وجهتي نظر مهمتين، وجهة نظر الباحث المحترف عبد الله الرامي، ووجهة نظر رجل الدولة هشام باعلي. أما ما عداهما فمجرد تأثيث للمشهد الحواري، فالأول كان يشرح الوضع في سياقه الجيوبوليتيكي ويتفهم موقع المغرب وتبعيته لحلف كان هدفه تدمير سورية، في حين كان الثاني يدعو إلى أخذ الأمور بواقعية، إذ من الصعب على «جهاز دولتي» أن يفكر بمنطق العواطف ويتساهل مع العائدين. أما برنامج «تحقيق» حول الموضوع نفسه فتركز على نقل صورة عن البيئة الاجتماعية والثقافية المغربية التي لا تحتضن مثل هذا الفكر البتة، فالعينة المأخوذة أسرت المعنيين بالأمر. لكن هل تتصل أبعاد هذا العرض بأهداف واضحة ومحددة ومعلنة؟

اعتُمد في ذاك العرض أسلوب التهويل، لكن ليس على نحو يعكس حقيقة الظاهرة، إنما بما يثير غرائز الخوف لدى جهات معينة، كأني بالمراد من ذلك إرسال رسائل إلى المسلحين المغاربة في سورية مباشرة أو عبر ذويهم مفادها أن الدولة لن تتساهل معهم وأن المجتمع يرفض فكرهم، وتصور لهم المسألة كأن الموت هناك أفضل من العودة إلى الاعتقال في المغرب، فالانطباع الأول الذي يكوّنه المشاهد العادي هو أن جميع المسلحين المغاربة في سورية يقوّمون مسألة العودة من المنظار نفسه.

هؤلاء هم بالطبع ضحايا الفكر الأحمق، والجيوبوليتيك المتعطش للجغرافيا، وهُم وقود الحروب على مدى أربعين سنة. لذا فإن أسلوب الإعلام الرسمي المغربي في التعامل مع الظاهرة لا يخرج على استعمال تقنية «الضخ الناعم والمنظم للمعلومة في ذهن الناس»، وهي تقنية استخدمت خلال الحرب الباردة ووصل مداها إلى العالم العربي مع توظيفات قناة «الجزيرة»، فكثر لم يفهموا إلى اليوم الدور المزدوج الذي لعبته «الجزيرة» أثناء حرب العراق، عبر تجييش الشعوب العربية وإخراجها إلى الشوارع، وتسعير الحرب النفسية ضد الجيش العراقي عبر التهويل بإمكانات المارينز، وبين هذا وذاك كانت تهيّئ العراقيين كي يستقبلوا صواريخ الناتو المقبلة من العيديد والسيلية! فالمطلوب بناء على ذلك تكبير الظاهرة على نحو يدفع إلى تحقيق أهداف معينة، أهمها أنه يُفضل أن يموت أولئك الأفراد في سورية ولا يعودوا إلى المغرب، وهي استراتيجية معمول بها، إذ ذهبت بعض الدول مثل بريطانيا لتحقيق ذلك إلى حد تجريد من يقاتل في سورية من جنسيته، ليس حرصاً على سورية من الإرهاب، بل حرصاً على استنفاد ورقة الإرهاب إلى أقصى الممكن، لتحقيق ما خصصت له، وإبعاداً للخطر عن أراضي تلك الدول. المغرب أيضاً يفعل الأمر نفسه، إذ يقع ضمن الحلف عينه، وينفذ التصورات ذاتها.

يتحدث بعض الخبراء في الملف عن ملامح التهيئة لمحرقة على أرض سورية، تُنهي الجسم المسلح أو تحجّمه. لذا يلاحظ ميل لدى الدولة والجيش في سورية إلى عدم تنفيذ تلك المخططات من دون أثمان في السياسة، فالأكيد أن سقف الحلف الدولي الذي اجتمع منذ الأيام الأولى لتوفير يعطي الغطاء السياسي والدولي والحقوقي والإنساني لما يحصل في سورية، سقفه تراجع من إسقاط الدولة السورية تحت عنوان «رحيل بشار»، إلى إنهاكها في تحمل مسؤولية منفردة جوهرها إنقاذ العالم من ثقل فكر الإرهاب والتطرّف الديني وتنظيماتهما.

غرض هذه المناقشة ليس قياس درجة الديمقراطية في سورية، قبل 18 آذار 2011 وبعده. تلك قضية أخرى تماماً، لذا فإن سياق الحديث المُسهب وغايته في الإعلام العالمي عامة، والإعلام المغربي خاصة، ليس هواجس إنسانية أو حتى أمنية، إنما استمرار في كشف الحسابات الجيوبوليتيكية. فالدول عادة لا تترك المصالح والاصطفافات المصلحية عبر العالم كي تعود إلى التفكير في القيم الإنسانية والنبل. هذا أمر مفهوم، بل إن الهاجس الأمني نفسه ليس مبعثه الخوف على سلامة المواطنين، بقدر ما تخشى الدول على الاستقرار الذي يضمن بيئة ملائمة لعدد من أنشطة الاستثمار، وهذا أمر مفهوم أيضاً، ومن هنا مصلحة الأفراد البسطاء في الطريق إلى ذلك فحسب، والمهم أن تأتي، على ما قلت في مقال سابق.

الإرهاب من مخلفات الحرب الباردة، وكانت الحاجة تظهر إليه من حين إلى آخر في إطار جيوبوليتيك الإرهاب، فالقوى التي راهنت عليه طوال أربعين عاماً، باعتباره أسلوباً أمثل للحرب بالوكالة، لم يعد في مستطاعها تحمل تبعاته، خاصة أنها اكتوت من نيرانه أكثر من مرة. ولعلّ المقبل أسوأ، فمن يقترب من هذا المكوّن اشتباكاً أو تشبيكاً لا بد من أن يكتوي منه. ومع انكشاف العلاقات المعقدة لأجهزة الاستخبارات العالمية مع شبكات التجنيد والتدريب والتعبئة للإرهابيين، أصبح الرأي العام الأوروبي والأميركي يضغط في اتجاه رمي تلك الورقة إلى صندوق القمامة، وزاد من ذلك السياق الموضوعي المرتبط بتحولات النظام الدولي وإعادة تشكيل موازين القوى وإعادة النظر في أدواتها.

الولايات المتحدة والقوى العظمى الحليفة لها لا تقيم علاقة متكافئة مع جميع حلفائها. لذا سواء اعتمدت على الإرهاب وسوّقت له حين تدعو مطامحها، أو استلزمت حاجاتها القضاء عليه، فإنها في الأحوال كلّها، تفعل ذلك من إيمان شعوبنا وبساطة اطلاعها وفهمها للإسلام، ومن توقهم إلى الخير، ومن سهولة انقيادهم من طرف هذا الشيخ أو ذاك من محترفي التحريض، وتعمل على تعبئة مشاريعها من فقرهم وجوعهم، وهي وحلفاؤها لجميع درجاتهم، لا تعنيهم دموع الأمهات المكلومات على أبنائهن المغرر بهم، إلا عندما تصبح مادة طازجة يستخدمها الإعلام لتعامل غير إنساني مع إنسان تشكل فكره على نحو غير إنسانيّ وأُريد له أن يكون ضحية، من ولادته إلى معانقته التراب...

الفكر التكفيريّ بداية ونهاية

■ ثائر أحمد ابراهيم*

لست أدري بما كان علماء المسلمين يتلهّون حينما قرّر سيد قطب في كتابه «في ظلال القرآن» أنّ لا وجود للمسلمين على الأرض طالما يحكم الحكام بغير الشرع، ولو في مسائلٍ صغيرة، وها هو يذكر في المجلد الثاني من مؤلفاته في الصفحة 590 قائلاً: «فليس هناك دين للناس إذا لم يتلقوا في شؤون حياتهم كلها من الله وحده، وليس هناك إسلام إذا هم تلقوا في أي أمر من هذه الأمور جل أو حقر من مصدر آخر، إنما يكون الشرك أو الكفر وتكون الجاهلية التي جاء الإسلام ليقتلع جذورها من حياة الناس».

سيد قطب متبني أفكار شيطانه الأكبر محمد بن عبد الوهاب، لم يسبق له أن جثى بين يدي العلماء للتعلّم ولا قرأ عليهم، ولا شمّ رائحة العلم، وكان أول أمره صحافياً ماركسياً تحوّل بقدرة خفيّة إلى علامة للمسلمين.

إنها مأساة حين نجد ثلّة من أجلّاء المسلمين، علماء ومثقفين، يمتدحون شخصاً جاهلاً ويباركون له أن جعل من نفسه نبيّاً مخلصاً وواسطة بين الناس والخالق لا تردّ وساطتها، والمفاجأة الكبرى تكمن في سماع الناس يصرخون متسائلين: «من أين أتى الفكر التكفيري، وكيف غل في مجتمعاتنا».

إن اختبار النور يدفعنا إلى إدراك الظلمة، ومعرفة الحق تكشف لنا الباطل، وكذلك فإن احتواء القلوب للإيمان يظهر لنا معنى الكفر، لكن السؤال المحرج الذي لا يجوز إهماله ولا بدّ من الإجابة عنه هو: «عن أي إيمان نتحدث وعن أي كفر؟».

إن أساس ظهور فكرة التكفير كان لعلّة غموض إدراك الناس معنى حقيقة الإيمان، وتناسى العقائديون أن دفع الناس بلا مؤيد عقلاني لتبني نهج حياتي بزعم أنه أمر إلهيّ يثاب أو يعاقب المرء على تركه أو على تبنيه ويؤيد بمؤيد الترهيب والترغيب هو ما أنشأ شذوذاً لدى مدعي الإهتمام بتطبيق هذا المنهج الحياتي، وهو ذاته ما دفعهم إلى نعت كل مخالف لهم بالكفر.

هذه حال الغريزة البشرية المنافسة، تعادي من يخالفها أو يزاحمها على فكرة تعتقد صوابيتها حباً بالتميز والتفوق، إنها حالة تختلف عن المظاهر العقلانية عندما تحضّ على المحاكمة والتمحيص والتبيّن.

أجزم أن التكفير لم يقتصر على مجموعة دون أخرى من البشر ولا ظهر في شريعة بخلاف غيرها، فالجميع من مدّعي الإيمان يملكون القدرة على إطلاق حكم التكفير على المخالفين، وهنا كان واجب الانتباه عند الحديث عن التكفيريين إلى أنهم لا ينتمون إلى شريعة واحدة محددة، بل هم موجودون في كل الشرائع السماوية والأرضية على حدّ سواء.

اعترض علينا أحد أساتذتنا في استخدامنا لفظ «الأمة الإسلامية» متسائلاً عن ملامح تلك الأمة الإسلامية المزعومة، وللوهلة الأولى وافقنا الغاضبين في غضبهم على ما آلت إليه حال الأمة من خروج على مبادئ الفطرة الإنسانية الحسنة وانجراف نحو الرغبات البهيمة وتكريس شرعة الغاب، وسايرناهم في تساؤلهم عن تلك الأمة الإسلامية من قبيل جلد الذات الساعي إلى إصلاح الحال، غير أن معرفتنا بأن الأمة الإسلامية لم تكن يوماً مقتصرة على أتباع محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله يجعلنا متمسكين بانتمائنا إلى أمّة أوجدها القدير وفصلها على المزايا الحسنة، ووحّدها على معرفته السامية ثم نوّع مشاربها لغاية التفاضل في العلم، على أمل أن يولد ذلك رغبة دافعة نحو التطور ويفتح باباً في اتجاه الصفاء والارتقاء.

الأمة الإسلامية لا تفترق عن الأمة البشرية المعترفة بوجود قدرة عليا أعلى من أي قدرة بشرية تحكم هذا الكون وتدير مقاليده، هي أمة البشر جمعاء وإن تعددت شرائعها المنزلة إليها من القدرة العلوية.

كان ابراهيم الخليل أباً للأنبياء جميعاً، وهو من أطلق على الملتزمين بمعرفة الخالق الأعلى تسمية المسلمين قبل أن يكون موسى أو عيسى أو محمد صلى الله عليهم أجمعين: «وجاهدوا في الله حق جهاده هو إجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير» (الآية 78 من سورة الحج). وأكد على هذا الانتساب والتصنيف ما أورده يعقوب في سؤاله إلى بنيه وجوابهم له بما ذكره القرآن في الآية (134) من سورة البقرة: «أم كنتم شهداء إذا حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحداً ونحن له مسلمون».

فإذا كان الإسلام أنْ تسلّم بأمر تعتقد بداهته، فإنه وبمجرد أن تسلّم بحقيقة وجود القدرة العلوية سيكون اسمك مسلماً، في وقت تبقى قضية الالتزام بشريعة دون أخرى لملاءمتها واقع المرحلة الحياتية التي يعيشها الإنسان أمراً لاحقاً وثانوياً.

لقد أهملنا في نضالنا الحزبي الجانب الديني عند الترويج لفكر البعث والسعي إلى بناء الدولة العربية المنشودة، رغم أن عقيدتنا البعثية لا تقوم إلاّ على أساس التوافق بين المعتقد الديني الفطري السامي وتطلعاتنا المادية ورغباتنا في تحصيل التقدم والرفاهية.

إذا اعتبرنا أن اللغة العربية هي حاملة فكر الإنسان العربي، وأن الإنسان في حاجة إلى حصيرة جامعة بينه وبين الآخرين عند التواصل تمكنه من الفهم والمعرفة ومن تحديد نوايا الآخرين، صار العربي في فكر البعث هو من كانت لغته عربية، ولطالما كانت اللغة العربية فخر العروبيين وأساس وجودهم مرتبطة ارتباطاً لصيقاً بالقرآن الكريم، سيد اللغة العربية وصائغ بلاغتها وناسج لوحاتها والمحافظ عليها.

و إذا كان الإيمان بالعروبة يستوجب بداهة الإيمان باللغة العربية، فقد كان الأوجب أن نشيع ونوضح للعامة أن الإيمان باللغة العربية يستوجب حتماً الإيمان بالقرآن، معجزة محمد بن عبد الله نبي الله ورسوله، ما يعني أن إنكار العروبة والكفر بها يؤديان إلى إنكار القرآن ومن آتى به ومن أنزله على نبيه.

إنها ليست فكرة صالحة للترويج لفكر البعث فحسب، بل هي حقيقة أصيلة في المعتقد البعثي، الذي كان همّه وهدفه استمرار الإنسانية وفق الفطرة الرحمانية الأولى.

لعلّ عتات قريش ومشركوها هم أول من استخدموا لفظة الكفر عندما نعتوا محمد بن عبد الله بالكافر إذ رفض عبادة أصنامهم، لكن الثابت أن التنافس السياسي الحاصل بعد وفاة النبي محمد وتغليب المصالح الخاصة على المصلحة الجمعية دفع أم المؤمنين عائشة إلى أن تقول عن الخليفة الثالث عثمان بن عفان: «أقتلوا نعثلاً فقد كفر». إنه التسجيل الأول عند مستوى سياسي كهذا في عهد الإسلام يستخدم مبدأ التكفير لتحقيق مصلحة معينة.

سيردّ علينا البعض ويذكرنا بأن حروب الردة كانت أسبق بين أصحاب محمد ويحاججنا البعض الآخر بأن بداية المأساة كانت عندما كفّر قابيل هابيلاً، وسنقول لهم إن الانشقاق الحقيقي بين أصحاب محمد لم يكن عند تمرد الأقلية على الأكثرية بل كان في لحظة ارتفاع صوت المنفعة بين الأفراد المتبقين من الصف الأول لقادة الدولة الإسلامية، وتبعته مباشرة تلك الحروب الكبرى التي أخذت معها ألوف المسلمين.

نستند إلى هذه الرواية من منطلق المقاربة التاريخية لا العقائدية، وبعيداً عن الجدال الدائر حول من بغى في ذلك العهد وما قد حصل بعد مقتل عثمان بن عفان، فقد انطلقت الشرارة الفتنوية وأعلن ظهور «الإسلام السياسي» لتُدمرَ حقيقة الالتزام العقائدي في نسيج المحمديين، فأنشأ كلّ طرف ذي مصلحة من المستندات العقائدية ما يوافق مصلحته، فطغى الإجتهاد تارة، والتأويل طوراً، وقامت معركة تأكيد رجحان أحقية المصالح بين المتحاربين، بعيداً عما هو مفترض أن يكون واجب الاتباع من أوامر ونواه رحمانية.

ورغم أننا نُدرك مدى حساسية الموقف، إلاّ أن السكوت والمواربة لم ينقذا الأمة سابقاً، ولا مجال للإعتقاد أنه سبيل إلى إنقاذها لاحقاً في خضم جريمة كبرى مستمرة ترتكب في حق الإنسانية المجردة.

في مراحل متلاحقة، وبعيداً عن نظرية المؤامرة والعمالة، ظهر من بين مدعي الإسلام ومن لا يمتون في حقيقة الأمر إلى الإسلام بصلة من شدّ أزر المتحاربين، متسلقين على أكتاف الإسلام لتحقيق منافعهم الخاصة طالما أنها متوافقة مع منافع المتحاربين على الصدارة ومصالحهم.

هناك من سعى بكل عزيمة ليقلب مفهوم الإسلام وسياسته إلى مفهوم «الإسلام السياسي»، فلم يبق الإسلام إسلاماً، ولم تبق الكلمة جامعة، وصارت المصلحة أو المنفعة تدير المعتقدات بدلاً من أن تكون المعتقدات تدير المصالح، واستبدت جماعة الإسلام السياسي على منتهجي «السياسة الإسلامية».

هكذا كانت الإسلاموية الحمقاء، وهكذا استغلها الإنتهازيون، وهكذا تجلت بدع الإجتهاد والتفسير لمصلحة كُتّاب التاريخ المنتصرين بسفك الدماء وانتهاك المحرّمات، كوسيلة بديلة من العقل وسبيلاً مغايراً للإصلاح.

سجل التاريخ على طرفي نقيض إلى جانب الأحاديث الرنانة عن الفتوحات الإسلامية الكثير من الويلات والجرائم التي ارتكبت في حق المخالفين، ليبقى ما فعله بنو أمية وبنو العباس بالناس وببعضهم وبآل بيت نبي الإسلام محمد بن عبد الله لإرساء حكمهم غيض من فيض ما ارتكبه سلاطين آل عثمان، والاطلاع على فتاوى قرضاوي المدعو عصرذاك أحمد إبن تيمية والذي قال عنه كبار العلماء إنه كافر مارق مدلّس وليس له في العلم من شيء، كاف لجعل كل مناد بالتسامح والمحبة والوفاق يجنح نحو إنكار ما سجّله تاريخ المتديّنون سالفاً.

هكذا، وعلى نول شيخ التكفير أحمد بن تيمية، نسجت أقذر شخصية في تاريخ البشرية المجرم محمد بن عبد الوهاب، المجهول النشأة والأصل أفكارها الهدامة، ليدخل على شرعة المحمدية ما لا سبق ولا سلف ولا ذكر من قذى عين، ووقر أذن، وتمزيق قلوب البشر من فجور وأذية واستباحة حرمات وقتل وسفك دماء، كأن التعاليم المزعومة المنسوبة إلى الإسلام زوراً وبهتاناً جاءت لتقتص من البشرية جمعاء.

هذه صورة لأمة البشرية التي ابتليت عبر تاريخها بالكثير من المجانين، وظلت صامتة عن ظلمهم وإسفافهم وسفاهتهم.

إنها سيرورة حتمية لمقدمات سابقة توجّس العقلاء الخوض فيها، وها هي النتائج اليوم تفيض علينا من كل حدب وصوب، فالإجرام كلّه، موجه اليوم ضد الطائفة (البشرية) المخالفة في الرأي لمعتقدي أحقية إباحة سفك الدم بفتوى التكفير.

اليوم ونحن نعيش «ربيع» الدجال، تتحفنا الشياطين بما ورثته من أبائها الأولين لتعيث فساداً ودماراً في ظل صمتنا المستمر عن قول الحقيقة، حقيقة لا بد من شجاعة مطلقة كي نصرح بها ونوضحها بعد كم المآسي التي تعرضنا لها وكادت تودي بنا وبحضارتنا وتاريخنا ومستقبلنا وبالكون كله إلى هلاك شامل.

لم يبق الأمر مخفياً عن أحد، وبات واضحاً مثل نور الشمس أننا بنينا جزءاً غير قليل من ثقافتنا على أباطيل، وارتكزنا في أفكارنا على مرجعيات زائفة أو في أقل تقدير مرجعيات لم تك مؤهلة ليؤخذ منها ما يناسبنا لبناء الإنسانية.

الحقيقة أننا لجأنا إلى عدونا الأوحد هو الجهل، كي يرضى عنا السطويون من الجهلة والمتنفعين. ضللت الأمة أو ضلت عن معرفة عدوها عبر قرون طويلة، وصار لزاماً علينا أن نوحد معرفتنا لذلك العدو، وأن نحدّده بما لا يقبل التأويل، وأن نجيّش البشرية لحربه التي لا بد من خوضها.

إنها حاجة وضرورة لمن يريد إنقاذ ما تبقى فينا من إنسانية. لا بد من رص الصفوف في مواجهة ذلك العدو الحاقد على جميع الأطياف والمذاهب والشرائع. إنها حرب الإسلام في مواجهة التكفيريين، وحرب الحق في مواجهة الباطل، وحرب النور في مواجهة الظلام، وحرب العلم في مواجهة الجهل. حرب ضد فئة آمنت على مساحة البسيطة بفكر الإلغاء وبمجابهة فكر القبول والتسامح ومعاداته.

قد يبدو كلامنا متطرفا بقدر تطرف الأعداء، لكن الضرورة في الدفاع عن فكرنا البعثي وانتمائنا الإسلامي البشري تحتم علينا أن نميز بين «الإسلام السياسي» و«السياسة الإسلامية»، وأن نزرع في أذهان الأجيال القادمة أن الكون منقسم إلى طرفين لا ثالث لهما، طرف الحق وطرف الباطل، وبين تعريف الحق والباطل وتحديد المفاهيم تكمن التفاصيل المربكة.

لن نجافي الحق إذا قلنا إنّ أهم أسباب انتهاج فكر التكفير هو الحقد الذي يتولد في النفوس وينمو بلا رقيب أو علاج، والمعني في قولنا هذا ليس الحقد على الآخر بسبب التفوق فحسب، بل إن الطبيعة البشرية تمنح فرصة تخفيف الشحن النفسي فيما لو حجبت تلك الفرصة، والفشل التابع لإعطاء الفرصة سيكون أقل تأثيراً في نفوس المحبطين عند الفشل الحاصل نتيجة حجب الفرصة، واهتمام الدولة والمجتمع بأمر الجميع حتى الفاشلين منهم سينمّي فكرة التعايش مع الحالة المزرية لكل قليل قدرة، ويرفع معدل ثقة الإنسان بالمجتمع، ما ينعكس إيجاباً على تقبل الفرد لما يوافق عليه المجتمع، وهذا أمر متوافق مع مقولتنا عن شخصية الأمة العربية والإسلامية على حد سواء والواضحة في كونها متجددة وقابلة للانبعاث ومتفهمة لفكرة المواطنة الصحيحة.

إن مشكلتنا الدائمة تظهر عند والبحث في كيفية الوصول بالمجتمع إلى حالة الاهتمام القصوى ورفع الإحساس بتحمل المسؤولية؟

المؤكد أن للعدل والمساواة وعدم تمييز شخص على حساب شخص آخر الدور الأعظم في تطور المجتمعات، فأساس العدل أن تكون الناس سواسية في نظر القانون وفي نظر الشرع. ألم يقل محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله بأنه أهلك الذين من قبلنا أنهم كانوا إذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وقد أقسم أنه لو كانت فاطمة بنت محمد سرقت لقطع يدها. تلك هي قوة العدل التي لا تشبه في أي شيء عدل القوة.

إن البناء المتكامل يبدأ من العناية بالتفاصيل الصغيرة، ليبقى الشكل النهائي الكبير نتاجاً للإهتمام بالتفاصيل وفق خطة شاملة لبناء المجتمع.

لذا عندما نقول إن أساس التكفير هو الجهل لمعنى الإيمان، وإن معركتنا الحقيقية هي ضد هذا الفكر المقيت، وإن نضالنا يجب أن يكون لإيجاد السبل الصحيحة للإنتصار عليه، فإنه لا مجال للتراخي في إعادة صوغ التاريخ المكتوب وتنقيحه من الأفكار الهدامة. والواجب أن نوحد جهودنا الفكرية والإعلامية في إقناع العامة بوحدانية العدو المتربّص بنا.

إن الجهل أخو الفقر، ومن لا يملك قوت يومه سيكون سهل الوقوع من ذاك المكتفي، وهذا لا يعني أن الاكتفاء المادي وحده هو سبيل الخلاص، فالاكتفاء المادي بلا وعي ودراية سيوصلنا إلى أن يصبح الإنسان سلعة في سوق النخاسة، يشرى ويباع لمن يدفع السعر الأعلى.

إن صوغ مفاهيم جديدة خاصة بأمتنا تناسب المعاني الأخلاقية وتنبذ المعاني الخلافية سواء على مستوى العقيدة أو على مستوى المصلحة سيكون منجزاً ومفيداً. علينا إعادة صوغ قواعدنا الأخلاقية وتنقيتها من الشوائب وفق متطلبات هذا العصر، وتلك الأسئلة العالقة التي هي أساس الإدراك الخاطئ. لا بدّ من تبني معنى اتفاقي عنها وترويجه لدى العامة.

من هو السلف الصالح المزعوم؟ وما هو المقبول والمرفوض بين المسلمين؟ وهل استطعنا فعلاً أن نحقق العدالة وفق المفهوم الديني للعدل؟ وكيف توافق ذلك مع متطلبات الحياة الحديثة وتطوراتها؟ كيف يكون الفرد مواطناً ومتى تنتفي عنه تلك الصفة؟ ومتى يتوجب إنزال القصاص في حق المخالفين في ظل معرفتنا بأن عقول الناس وهمتها لا تتساوى؟

إنها مجموعة من المطالب الملحة الواجبة البحث والإصلاح، ولا يكفي أن ننسج ونبني في جزئية ونؤجل بناء الجزئيات الأخرى، فتلك معركة على الجميع أن يشارك فيها بلا استثناء مع مراعاة نبذ المهملين والمتجاوزين، فعندما يتحد المجتمع على هدف واحد وعلى عدو واحد وعلى قيم واحدة تصبح الطريق واحدة ويصبح الجهد منتجاً.

سمعنا كثيراً عن أهمية الاختلاف بين العامة لأجل الإرتقاء، غير أن الاختلاف غير المضبوط والمتروك على غاربه أودى بنا إلى الهلاك، فمعنى الرأي الجمعي هو أن يتم التقريب بين أفكار الناس للوصول إلى التقارب، لا أن يؤخذ برأي دون رأي آخر، أوعزل رأي ما عن باقي الآراء.

إنه جهد لأجل توفيق الآراء وتوحيد المصالح، ونبذ الرديء منها والحضّ على الطيب، وتلك ثقافة مجتمع بكامله. لا بد من إعادة تطهيرها من دنس الأفكار الدخيلة وفي هذا تتحقق نهضة الأمة. لا يكفي الحديث عن ذلك في المجالس، بل يجب أن يلزم رجال الدين، خاصة في خطب الجمعة، بكلمة واحدة موحدة. يجب الانتباه إلى مدرسي التربية الدينية في المدارس وانتقائهم بعناية فائقة، والاستعاضة عن مادة التربية الدينية بكتاب جامع للأخلاق.

لا بدّ من التنبه لثقافة الأطفال والأجيال المقبلة، وتنقيحها من رواسب المرحلة الراهنة، والانتباه إلى أدق وأصغر تفاصيلها.

إنّ الحاجة ملحة إلى تسخير الإعلام بأدق تفاصيله لضخ ما يلزم لتكوين رأي عام إنساني إن لم يكن مشتركاً فعلى أقل تقدير متقارب بين العامة.

لا يضيرنا عندما نتحدث في فترة مقبلة عن عدو مشترك تتحد القوى الشعبية للقضاء عليه، أن يرافقه فكر إصلاحي يدفع العامة للإيمان بالدولة ووجودها.

لا نريد ونحن الناهضون من صميم الأرض والتاريخ أن يحل بنا ما حل بغيرنا من فشل، ولا يجوز أن نتخذ الخائبين في تجاربهم معياراً لمدى نجاحنا، ولا أن نخدر أنفسنا بدعوى أننا محصنون عما وقع فيه غيرنا.

ثلاثة مواقف:

الأول: يقول مفتي الجمهورية العربية السورية الشيخ أحمد بدر الدين حسون إن يوم عاشوراء كانت فيه مأساة الأمة الإسلامية، بيد أن المتابع اليوم لحقيقة ما حصل على أرض الشام يعلم أن المأساة الحقيقة للأمة كانت عندما أعلنت أول ثورة في الإسلام ضد عثمان بن عفان، ومن حينها وحتى الآن تركت الأمور على أهواء معتقديها، فليس من يجرؤ ليقول إن عثمان أخطأ، أو أن من ثاروا على عثمان كانوا المخطئين، ولا من تجاسر ليعلن أن أم المؤمنين التي طالبت بالثأر لدم عثمان هي ذاتها من حرضت الناس على قتله بعدما أعلنته كافراً.

الثاني: طبّق أصحاب نظرية التسامح نظريتهم على واقع مضطرب، فكانت النتائج كارثية عند المواجهة مع قوى الشر، وأبسطها أن هناك من تجرّأ على الإنسانية فصلب المسيح بن مريم على رؤوس الأشهاد، وذبح الأنبياء والأتقياء، وعودي الرحمانيون، وكانت مهزلة كبرى أن نبادل الشر بالخير. إنها تجربة فاشلة حقاً.

بعد ذلك كان الدور لمنظّري فكرة الردّ على الشر ومحاربته بالقوة ليظهروا صدق نظريتهم، فأُعطوا فرصة الممارسة والتطبيق، وقاتل محمد بن عبد الله بحرب ضروس، وعزل الأشرار إلى حد الوصول إلى إنهائهم، غير أنّ حُسن النوايا التي كانت لا تزال هاجساً في قلوب الكثير من متبني فكرة التسامح أقعدت المعتقدين بضرورة المواجهة عن إكمال حربهم، ليتنفس المنافقون الصعداء بلا حسيب أو رقيب وليعود الجشع والطمع. هكذا انتهت الأمور إلى ما منه بدأنا، وكما أثبت التسامح أنه غير ذي جدوى عندما يصبح الوجود هو المهدد، كذلك أثبت التراخي أنه مؤذ وكارثي.

الثالث: من الجيد أن نتساءل ونستفهم. هل أصاب أحدنا العجب والذهول ونحن نتابع أولئك المؤمنين بالدولة؟ وهل سألنا أنفسنا من أين لهؤلاء القدرة على الصمود وأن يقاتلوا على خطوط الإشتباك وهم محرومون من الكثير من مستلزمات الصمود والاستمرار؟ إنني أعجب لمقاتل لم يشاهد أسرته منذ عدة أشهر كيف يستمر في القتال وهو يرى أن حقه في إجازة خاصة قد جيّر إلى صاحب نفوذ أو حظوة آخر، وأن رغيف خبزه يسرقه من لا ينتمي إلى جنس بشري.

لأنّ الحياة نسيج متكامل يتفاعل في تفاصيله كلّها، بعضها مع بعضها الآخر، فلا ضير في الاتعاظ من تجربة معادية كادت تنجح بعد نحو مئة عام من الاشتغال عليها في الظل. إنها تجربة جماعة «الإخون المسلمين» التي استطاعت أن تستبيح عقول جيل كامل لا يجوز إنكاره من خلال أقوال أو أفعال كنا غافلين عنها كما ثبت من واقع الحال الجاري:

يقول محمد الغزالي في كتابه «من معالم الحق» الصفحة 263 و264: «فلم يشعر أحد بفراغ الميدان من الرجولات المقتدرة في الصف الأول من جماعة الإخوان إلا يوم قتل حسن البنا في الأربعين من عمره. كان في الصفوف التالية من يصلحون بلا ريب لقيادة الجماعة اليتيمة، ولكن المتحاقدين الضعاف من أعضاء مكتب الإرشاد حلوا الأزمة أو حلت باسمائهم الأزمة، بأن استقدمت الجماعة رجلا غريبا عنها ليتولى قيادتها».

جاء في كتاب الله العزيز، في سورة البقرة، الآية 44 قوله تعالى: «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وانتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون»، إن اللبيب من الإشارة يفهم.

* محامٍ